

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس الأول

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمّا بعد؛ فهذا اللقاء عنوانه: «مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية».

وعادة يُراد بمدخل العلوم: التعريف بهذا العلم من حيث بيان حقيقته، وبيان مكانته، وبيان ما بُدّل من جهودٍ في تجليلته وإيضاحه، وبيان شرفه وفضله ومكانته، إلى غير ذلك من الأمور التي هي بمثابة المقدمات والمفاتيح لدراسة الفن المراد بيانه.

وهذا مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، وستناول -بإذن الله تبارك وتعالى- في هذا المدخل أموراً عديدة تأتي تباعاً في نقاطٍ أُبين من خلالها ما يتيسر بيانه حول العقيدة الإسلامية وما يتعلق بها؛ تقريراً وتأصيلاً، وبياناً لمكانتها ومنزلتها وفضلها، وما بُدّل من جهودٍ في بيانها، وما يترتب على تحقيقها من ثمارٍ وآثار.

والحديث هذا اليوم سيكون في ثلاث مقدمات:

❖ المقدمة الأولى: في التعريف بالعقيدة، وبيان المراد بها، وذكر الألفاظ المرادفة لهذه الكلمة؛

كلمة «العقيدة».

والعقيدة: مأخوذة لغةً من العَقْد الذي هو الشد وربط الأمر وإيثاقه بحيث لا ينفلت ولا ينفصم، عَقَدَ الحبل؛ أي: ربطه وشدّ وثاقه، وتُطلق أيضاً على ملازمة الشيء، ولهذا قيل: إنَّ المراد بقول النبي عليه الصلاة والسلام: «الْحَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»؛ أي: ملازم لها إلى قيام الساعة.

والعقيدة التي هي أساس دين الله تبارك وتعالى والتي هي أصل دين الإسلام = سميت بهذا الاسم؛

لأن مبناها على ربط القلب على أمور الاعتقاد وأصول الديانة، فلا تكون عقيدة إلا إذا كانت بهذه الوثاقة وبهذا الارتباط وبهذا التمسك وبهذا التمكن في قلب المسلم، فلا تكون عقيدة إلا إذا ربط المسلم قلبه عليها ورسخت فيه وثبتت؛ فلم يكن في القلب تجاهها تزعر أو شك أو تردد أو ارتياب، ولهذا قال الله

ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، بهذا تكون العقيدة؛ ﴿ثُمَّ لَمْ

يَرْتَابُوا»، ومعنى ﴿لَمْ يَرْتَابُوا﴾؛ أي: أيقنوا ولم يشكوا، كانت قلوبهم على هذا الأصل ثابتة عليه متمكنة فيها ليست مترددة ولا مضطربة ولا شاكة؛ فهذا يكون الاعتقاد.

وقد جاء في «المسند» للإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسناد ثابت أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ عِنْدَ اللَّهِ إِيْمَانٌ لَا شَكَّ فِيهِ»، هذا هو الاعتقاد؛ إيمانٌ لا شكَّ فيه، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ إيمانٌ لا شكَّ فيه، فإذا وُجد الشكُّ في أصول الدِّيانة لم يصبح اعتقادًا، وإنما يصبح ريبًا أو شكًا أو ظنًّا أو نحو ذلك، فالعقيدة الإسلامية سُمِّيت بهذا الاسم؛ لأنها مبنية على ربط القلب على أصول الدِّيانة وتمسك القلب بأصول الدين وأصول الإيمان بدون شك ولا ريب.

وهذا الاسم «العقيدة» هو اسمٌ شرعي ثابت عن النبي عليه الصلاة والسلام، على خلاف ما يدعيه بعض أهل الأهواء أنه مصطلحٌ حادث؛ بل هذا اسم شرعي ثابت عن النبي عليه الصلاة والسلام، كما جاء في «سنن الدارمي» بإسناد جيد أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَعْتَقِدُ قَلْبُ مُسْلِمٍ عَلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، فهذا اسم شرعي ثابت عن النبي عليه الصلاة والسلام ودرج السلف الصالح رحمهم الله تعالى على استعماله، ولهذا صُنِّفَتْ مصنَّفات عديدة للسلف رحمهم الله تعالى في بيان أصول الدِّيانة وسُمِّيت بالاعتقاد أو بالعقيدة أو بأصول العقيدة، وهو اسمٌ منطبقٌ على مسماه كما عرفنا ذلك؛ لأن العقيدة لا بد فيها من ثبات القلب أو من ربط القلب على أصول الدِّيانة، فإذا لم يكن ربطًا وإيثاقًا ووُجد في القلب شكٌّ أو ريبٌ أو نحو ذلك لم تكن عقيدة.

وهذا من جهة أخرى يبيِّن لنا المكانة العلية للعقيدة الإسلامية، وما ينبغي أن تكون عليه القلوب المؤمنة في أمر الاعتقاد من ثباتٍ ورسوخٍ وتمكُّنٍ في قلب المسلم، وكيف لا يكون شأنها كذلك وهي أساسُ بناء الدِّين والأصل الذي عليه تقوم! فدين الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقوم إلا على عقيدة راسخة ثابتة رُبط القلب عليها واستوثق بها، فعلى هذا يكون قيام الدِّين، أمَّا بدونه فما يكون عليه الإنسان من عملٍ أو نحو ذلك عُرضة للانحيار في أسرع وقت، كما هو الشأن فيما يقام من أبنية شامخة عالية على غير أساس فسرعان ما ينهار البناء.

والبيت لا يُبْنَى إِلَّا بِأَعْمَدَةٍ ولا عماد إذا لم تُرسَ أو تادُ

وسياتي معنا لاحقًا - بإذن الله تبارك وتعالى - ذكرٌ لبعض مصنَّفات السلف رحمهم الله تعالى التي

سُمِّيت بهذا الاسم، وهي كثيرة جدًا.

وخلاصة القول: أن «العقيدة» لفظة شرعية وليست مصطلحاً حادثاً، جاء استعمالها في حديث رسول الله ﷺ، ودرج السلف الصالح على استعمال هذه اللفظة في أصول الديانة وأركان الإيمان وأسس الملة للأمر الذي سبق بيانه وإيضاحه.

وللعقيدة أسماء أخرى متعددة وردت في إطلاقات أهل العلم، وأيضاً فيما سموا به مصنفاتهم في أبواب الاعتقاد؛ فكلمة «عقيدة» لها ألفاظ مرادفة وألفاظ مقاربة تطلق على أمور الاعتقاد وأصول الديانة، فيقال: «العقيدة الإسلامية» ويقال: «التوحيد»، «علم التوحيد»، وأيضاً يقال عنها: «الفقه الأكبر»، وكذلك يقال لها: «أصول الدين» أو «أصول الديانة» أو «أصول الملة»، وكذلك يقال عنها: «الشرعية» و«السنة»، وفي كل ذلكم صنفت مصنفات للسلف الصالح في باب الاعتقاد سُميت بالأسماء السابقة.

والتوحيد هو أصل أصول الاعتقاد وأعظم أسسه؛ لأن الاعتقاد له أصول عديدة أعظمها توحيد الله ﷻ وتحقيق الإيمان به جل شأنه وبوحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه تبارك وتعالى وصفاته؛ وهو ما يُعرف عند أهل العلم بـ«أقسام التوحيد الثلاثة»، وهي أركان للإيمان بالله، لا يكون العبد مؤمناً بالله ﷻ إلا بإيمانه بهذه الأركان التي بها يصح الإيمان بالله ويستقيم.

■ الإيمان بوحدانيته ﷻ في ربوبيته؛ بالاعتقاد الجازم والإيمان الراسخ أنه وحده رب العالمين وخالق الخلق أجمعين، الذي بيده أزمة الأمور ومقاليد السموات والأرض، الذي بيده ملكوت كل شيء، القدير على كل شيء، الذي له المشيئة النافذة والقدرة الشاملة.

■ والإيمان بوحدانيته في أسمائه وصفاته؛ بالإيمان بها وإثباتها، وعدم جحد شيء منها أو الإلحاد فيها، كما قال الله جل شأنه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ [الأعراف].

■ والإيمان بوحدانيته ﷻ في ألوهيته؛ بأنه المعبود بحق ولا معبود بحق سواه.

فهذا هو توحيد الله الذي هو أعظم أصول الديانة وأصل أصول الإيمان.

والتوحيد الذي هو أصل أصول الديانة له جانبان:

- جانب عملي.
- وجانب علمي.

وهما الغاية التي خلُق الخلق لأجلها وأوجدوا لتحقيقها:

يدل للأول قول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات] هذا في الجانب العملي.

ويدل للثاني وهو العلمي قول الله في الآية الأخيرة من سورة الطلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٣﴾﴾ [الطلاق].

تأمل في الآيتين؛ آية الذاريات وآية الطلاق، آية الذاريات فيها خلق لأجل العبادة، قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾؛ خلق لتعبدوا، وآية الطلاق فيها أنه خلق للعلم ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ لماذا؟ قال: ﴿لِتَعْلَمُوا﴾؛ هناك خلق لتعبدوا وهنا خلق لتعلموا. فهذا يدل على أن الغاية من الخلق هو توحيد الله بجانيبي التوحيد العلمي والعملي. والعلمي يشمل الربوبية والأسماء والصفات.

والعملي هو توحيد العبادة، بإخلاص الدين لله ﷻ وإفراجه بجميع أنواع العبادة؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥]، قال جل وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال جل وعلا: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢١٠﴾﴾ [الأنبياء].

والتَّوْحِيدُ لا يكون إلا بنفي وإثبات، فلا يكون التوحيد إلا بهما، ولهذا قيام التوحيد على هذين الركنين: النفي والإثبات، وهما مجتمعان في كلمة التَّوْحِيدِ «لا إله إلا الله»، هذا هو التَّوْحِيدُ، و«لا إله إلا الله» هي كلمة التَّوْحِيدِ نفي وإثبات، لا يكون العبد موحِّدًا أو من أهل التوحيد إلا بهما؛ بالنفي والإثبات، فإذا نفى ولم يُثبِت ماذا يكون؟ من قال: «لا إله» ووقف يكون ملحدًا، ومن أثبت ولم ينفِ يكون مشرِّكًا، الذي يثبت العبادة لله ويقول: لا أنفيها عن سواه يكون مشرِّكًا، فالتوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات؛ نفي العبودية عن كل من سوى الله، وإثباتها بجميع معانيها لله وحده ﷻ.

ولغرس هذا الأمر والتمكين له في القلوب وتوسيع مساحته في النفوس كان من هدي نبينا عليه الصلاة والسلام؛ كما جاء في حديث عبد الله بن الزبير في «صحيح مسلم» أنه كان يهتَلُّ دبر كل صلاة فيقول: «لا

إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»؛ فهذه ثلاث تهليلات تقال دبر كل صلاة، وعقب كل تهليل من هذه التهليلات الثلاث ذكر ما هو تحقيق للتوحيد وتأکید لمعناه، أو ما هو شرح وبيان للتوحيد وإيضاح لحقيقته.

فقولك عقب التهليل الأولى: «وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ» هذا تأكيد للتوحيد بركنيه، أكد الإثبات بقوله «وَحْدَهُ»، وأكد النفي بقوله: «لَا شَرِيكَ لَهُ».

وقولك بعد التهليل الثانية: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ»، قولك: «وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ» هذا بيان للمعنى، معنى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أي: ألا نعبد إلا الله.

وقولك: «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» بعد التهليل الثالثة بيان أن حقيقة التوحيد إخلاص الدين لله ﷻ بأن يكون الدين صافياً نقياً لا شائبة فيه، كله لله رب العالمين؛ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

ويمكن في ضوء هذا التهليل المبارك الذي يردده المسلم دبر كل صلاة أن نستقي منه تعريفاً جامعاً للتوحيد مستفاد من التهليلات الثلاث التي يرددها المسلم دبر كل صلاة فنقول: التوحيد هو أن نعبد الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين، أو بعبارة أدق؛ التوحيد: ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين؛ «ألا نعبد إلا الله» هذا من التهليل الثانية، «وحده لا شريك له» من التهليل الأولى، «مخلصين له الدين» من التهليل الثالثة. فهذا التعريف جامع مأخوذ من هذه التهليلات المباركة التي يرددها المسلم دبر كل صلاة، التوحيد هو: ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين.

ولعلنا ندرك بمعرفتنا لهذا التهليل وأهمية تكرار المسلم له دبر كل صلاة المكانة العلية التي ينبغي أن تكون عليها العقيدة في قلب المسلم من حيث المذاكرة والمدارسة والمراجعة والاستذكار؛ ترسيخاً لها وتوسيعاً لمساحتها في القلب وتمكيناً لها في النفس، ولما كان بعض الناس يردّد هذه الكلمات دون وعي ودون فهم وجد فيمن يهمل من ينقض تهليله فتسمعه يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» ثم بعدها بقليل يقول: "مدد يا فلان، أو: أدركني يا فلان، أو: إن لم تأخذ بيدي فمن الذي يأخذ بيدي! أو: ما لي من ألوذ به سواك" أو نحو ذلك، فهذا التهليل المبارك الذي يردده المسلم دبر كل صلاة فيه حقيقة فوائد عظام جداً يجدر بالمسلم أن يعيها حتى يعظم حظه ونصيبه من التوحيد.

ومن أسماء العقيدة «الفقه الأكبر»، وبعض أهل العلم سمّوا مصنفاً في الاعتقاد بهذا الاسم «الفقه الأكبر».

وبهذا يُعلم أن قول نبينا عليه الصلاة والسلام: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ»؛ ما المراد بالفقه هنا؟ هل المراد به التعبير الشائع أو الإطلاق الشائع للفقه مراداً به الأحكام العملية؟ أو المراد بالفقه في الدين أي: عقيدة وشريعة؟ لا شك أن هذا هو المراد، المراد بقوله: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ»؛ أي: عقيدة وشريعة، لأن دين الله ﷺ عقيدة وشريعة، كما هو واضح في حديث جبريل لما ذكر شرائع الإسلام وأصول الإيمان ختم ذلك بقوله: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»، فالدين عقيدة وشريعة. ف«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ» أي: في دين الله عقيدة وشريعة.

ولهذا من أمارات الخير وعلامات التوفيق أن يحبَّ المسلم دراسة العقيدة الإسلامية المستمدة من الكتاب والسنة، وأن ينشر صدره لدراستها وتعلمها؛ لأن هذا من إرادة الخير به، أليس قد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ»!! والعقيدة هي أعظم الدين، قد مر معنا قريباً قول نبينا عليه الصلاة والسلام: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ عِنْدَ اللَّهِ إِيمَانٌ لَا شَكَّ فِيهِ» والحديث في «المسند» للإمام أحمد، وثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ»، فالعقيدة هي أفضل الدين وأعلى شأنًا وأرفع مكانة، فإذا انشرح صدر المسلم لدراسة العقيدة وتعلمها ومذاكرتها فهذا من إرادة الخير به.

كذلك من أسماء العقيدة: «السُّنَّةُ»، وقول نبينا عليه الصلاة والسلام: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»، قوله: «مَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» ونظائر ذلك مما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه يتناول الدين كله عقيدة وشريعة. ولهذا بعض العلماء من السلف رحمهم الله تعالى صنّفوا في العقيدة مصنّفات أطلقوا عليها «السُّنَّةُ»؛ لأن السنة المروية عن النبي ﷺ المأثورة عنه: عقيدة وشريعة.

كذلك من أسماء هذا العلم: «أصول الديانة» أو «أصول الدين»، وبهذا أيضاً صنّفت مصنّفات. وكذلك «الشريعة»؛ لأن العقيدة شرعٌ أذن الله به، قد قال الله سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَوُا شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣] الآية. فالعقيدة شرع الله ﷺ الذي أمر عباده بالإيمان به واعتقاده. فهذه المقدمة الأولى.

❁ المقدمة الثانية: في بيان فضل هذا العلم وشرفه ومكانته.

والكلام على فضل العقيدة وشرفها يطول وهو حديث ذو شجون والكلام فيه واسع، لكن نجتزئ لضيق الوقت بالإشارة إلى بعض الجوانب التي تتعلق بهذا المطلب أو بهذا الأمر الذي هو بيان شرف العقيدة وفضل هذا العلم. ويكفي هذا العلم شرفاً وفضلاً وتبلاً ومكانة شرف المعلوم، إذ قيل قديماً: «شرف العلم من شرف معلومه»، وأي شيء أشرف من العلم بالله ﷻ، الذي العلم به هو أشرف علم وأفضله، وبقية العلوم تبع له وفرع عنه!!

فالعلم بالله ﷻ وبخصائصه جل شأنه وحقوقه على عباده وما يجب له ﷻ من توحيد وإخلاص وإيمانٍ بوحدانيته وتفرده وعظمته وجلاله وكماله وكبريائه؛ لا شك أن هذا أفضل علم وأشرفه وهو الذي يورث الخشية والإنابة وحسن الالتجاء وتحقيق العبودية لله ﷻ، قد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: «أي: العلماء بأن الله على كل شيء قدير».

وهذه لفظة عجيبة وعظيمة جداً من هذا الخبر الإمام ﷻ وأرضاه، «العلماء بأن الله على كل شيء قدير»؛ لأن علمك بالله وأنه ﷻ له القدرة الشاملة والمشئة النافذة، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه الكبير المتعال، العظيم ذو الجلال جل شأنه؛ هذا كله يملأ القلوب تعظيماً لله ﷻ وقدرًا له جل شأنه حق قدره. بينما إذا ضعفت هذه المعرفة وضعف هذا العلم في القلب ضعفت آثاره. ولهذا قيل قديماً: «من كان بالله أعرف كان منه أخوف»؛ لكن ضعف الخوف من الله وضعف الإقبال على الله وضعف حُسن الالتجاء إلى الله ﷻ من ضعف المعرفة بالله ﷻ.

ومما يبين فضل هذا العلم: أنه أصل دين الله الذي عليه يبنى وأساسه الذي عليه يقام، فلا قيام للدين إلا على العقيدة الصحيحة، فالعقيدة للدين بمثابة الأصول للأشجار والأسس للبُنيان، فكما أن الأشجار لا تقوم إلا على أصولها، والأبنية لا تقوم إلا على أعمدتها، فالدين لا يقوم إلا على العقيدة؛ فإنسان بلا عقيدة كجسد بلا روح. فمكانة العقيدة من النفس البشرية بمثابة الروح التي تكون بها الحياة الحقيقية للإنسان؛ لأنها إذا انتزعت العقيدة من الإنسان كانت حياته بهيمية وليست حقيقية، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ولهذا سمى الله جل شأنه الوحي روحًا؛ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾

[الشورى: ٥٢] لماذا سمّاه روحًا؟ لأن الحياة الحقيقية للقلوب لا تكون إلا به، وأعظم شيء في وحي الله وتنزيله الاعتقاد، قال الله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴿ [النحل] هذا أعظم شيء في الوحي؛ الاعتقاد، التوحيد، الإخلاص لله ﷻ، الإيمان بوحديته جل في علاه.

ومن فضل هذه العقيدة كما أسلفت: أنها الأصل الذي يقوم عليه دين الله؛ ومما يبين ذلك قول الله ﷻ في المثل العظيم الذي ضربه جلّ وعلا لبيان الإيمان في سورة إبراهيم فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ١١﴾ تُوِّجَتْ أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ١٢ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ١٣﴾ [إبراهيم]؛ تأمل هذا البيان العجيب! ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ١١﴾، فثبوت هذا الأصل الذي هو الاعتقاد يكون قيام الفرع وحصول الثمر، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾؛ ومن المعلوم أن الشجرة إنما يعظم الانتفاع بها ويتحقق ثبات أصلها ورسوخه، فإذا ثبت الأصل ورسخ قامت الفروع وتحققت الثمار والآثار؛ فهذا مثل لبيان الدين وبيان مكانة العقيدة من دين الله ﷻ.

إذا أردت أن تعرف مكانة العقيدة من دين الله فانظر إلى النخلة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام بين كما في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما أن المراد بالشجرة الطيبة التي جعلت مثلاً للمؤمن النخلة، قد ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عمر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ أَوْ كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا، وَلَا، وَلَا، وَلَا» يذكر صفات لها جعلها الله مثلاً للمؤمن، ثم لما لم يعرفوا ما هي قال: «هِيَ النَّخْلَةُ»؛ وهذا من الدلائل على شرف هذه الشجرة وأنها أفضل الأشجار، لأن الله ﷻ خصّها من بين الأشجار بأن ضربها مثلاً للمؤمن.

فالنخلة لها أصل، لها عروق ثابتة ممتدة ضاربة في الأرض متمكنة فيها، وتنزل تبث عن الماء الذي به حياتها، وكلّما كان الماء إلى جهة اتجهت عروقها إليه - سبحان الله! - تطلب الماء، فبالماء حياتها؛ والمؤمن قلبه يبحث عن الوحي، لأن بالوحي حياته، قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ١٤ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِفُونَ ١٥﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿ بماذا؟ بالماء ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٦﴾ [الحديد]؛ أي: كما أن الشجر ومنه النخل يحيى بالماء فإذا حُبس عنه الماء مات، فكذلك القلوب لا تحيي إلا بالوحي، فإذا حُبس عنها الوحي ماتت.

ولهذا كلما ابتعد الإنسان عن الوحي اقترب من الموت، يموت قلبه بدون الوحي، وكلما اقترب من

الوحي دَبَّتْ فِيهِ الْحَيَاةُ بِحَسَبِ قَرْبِهِ مِنَ الْوَحْيِ وَحِظُهُ وَنَصِيْبِهِ مِنْهُ، قَدْ مَرَّ مَعَنَا قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

ومن دلائل وشواهد فضل العقيدة ورفيع مكانتها: أنها أساس لا تصح الأعمال إلا به، ولا تقبل إلا به؛ فالعمل مهما عظم وكبر وتعدد وتنوع لا يقبل إلا بعقيدة صحيحة، فالعقيدة أساس وأصل لقبول الأعمال، فإذا وجدت أعمال بلا عقيدة فماذا تكون؟ تكون هباءً منثورًا، فالعمل الذي يكون على غير عقيدة لا يقبل، ولهذا ترى في آيات كثيرة جدًا في القرآن تُذكر العقيدة أساسًا لقبول الأعمال، في مثل قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة. فالأعمال الصالحات والطاعات المتنوعات لا تقبل إلا بالاعتقاد، وبدون الاعتقاد يكون العمل باطلًا وحابطًا وليس مقبولًا؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]. فالنفاق وهي عمل صالح لا تكون متقبلة إلا إذا كانت قائمة على عقيدة صحيحة. فالعقيدة من شرفها وفضلها ومكانتها العلية أنها تصحح الأعمال، فلا تصح الأعمال إلا بها ولا تقبل إلا بها.

ومن شرف هذه العقيدة ومكانتها: كثرة ثمارها وتعدد فضائلها وتنوع خيراتها وبركاتها، وسيأتي لاحقًا بسطًا لثمرات الاعتقاد وفوائده وآثاره التي يجنيها المؤمن ويحصلها صاحب المعتقد السليم.

ونكتفي بهذا لندخل في:

❁ المقدمة الثالثة من المقدمات الثلاث وهي: حديثٌ حول حملة العقيدة من هم؟ حملة هذه

العقيدة الصحيحة من هم؟

وجواب ذلك باختصار شديد: هم أنبياء الله وتابعوهم بإحسان، أو أنبياء الله وورثتهم؛ فحملة هذه العقيدة والدعاة إليها والمنافحون عنها والدأبئون عن حماها والمنتصرون لها هم أنبياء الله وورثتهم، قد قال عليه الصلاة والسلام: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُوهُ»، وقال عليه الصلاة والسلام: «وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ».

والأنبياء من أولهم إلى آخرهم عقيدتهم واحدة، لا اختلاف بين نبيٍّ وآخر في العقيدة، فعقيدة الأنبياء

واحدة وأصولهم أجمعين واحدة، ولهذا قال أهل العلم: العقيدة لا يدخلها النسخ، وإنما يدخل الأحكام، أما العقيدة لا يدخلها النسخ لا في شريعة النبي الواحد ولا أيضًا بين نبي وآخر، العقيدة لا يدخلها نسخ؛ فالعقيدة التي عليها نوح هي العقيدة التي عليها إبراهيم، هي العقيدة التي عليها موسى وعيسى، هي العقيدة التي عليها خاتم النبيين، هي العقيدة التي عليها الصحابة والتابعين لهم بإحسان؛ عقيدة واحدة، وهي عقيدة نازلة بالوحي من الله ﷻ رب العالمين، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد»؛ العلة من هي؟ العلة: هي الزوجة على الزوجة؛ الزوجة على الزوجة يقال لها: علة، والعلل: هو النهل والشرب، فالزوجة على الزوجة يقال لها: علة، يقول: «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» أي: عقيدتنا واحدة والشرائع قد تكون مختلفة بحسب حاجات الأقسام وواقع الزمان، قال الله ﷻ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٩]، ولهذا يدخل النسخ في الأحكام، أما العقيدة فهي عقيدة واحدة.

فالأنبياء كلهم على عقيدة واحدة، كلهم دعاة إلى توحيد الله وإفراده جل شأنه بالعبادة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء]، قال تعالى: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الزخرف]، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الطُّنُورُ﴾ أي: الرسل ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ هذه مهمة الأنبياء، فهم كلهم دعاة إلى توحيد الله وإفراد الله ﷻ بالعبادة، وكلهم دعاة إلى الإيمان باليوم الآخر، ما من نبي بعثه الله ﷻ إلا ودعا قومه إلى الإيمان باليوم الآخر، ولهذا يقول الله سبحانه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الزمر: ٧١].

الرسل كلهم يندرون من لقاء الله، وكلهم دعاة إلى الإيمان باليوم الآخر، فما من رسول بعثه الله إلا ودعا قومه إلى الإيمان باليوم الآخر، وكلهم دعاة إلى الإيمان بالأنبياء الذين يبعثهم الله ﷻ بوحيه جل شأنه وتنزيله، ولهذا كان التكذيب بنبي واحد تكذيب بجميع النبيين، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء] مع أنهم إنما كذبوا نوحًا وحده عليه السلام! فدين الأنبياء واحد، عقيدتهم واحدة، أصولهم واحدة، إلى أن ختمهم الله ﷻ بمحمد صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أتباع هذا النبي عليه الصلاة والسلام بإحسان هم حملة العقيدة التي كان عليها صلوات الله وسلامه عليه وكان عليها الأنبياء من قبله، ولهذا يُطلق على حملة العقيدة الصحيحة أسماء تدلُّ على هذا الارتباط بالنبي عليه الصلاة والسلام وبما جاء عنه؛ فيقال: «أهل السنة والجماعة»، يقال: «أهل الحديث»، يقال: «أتباع السلف» أو «السلف»، يقال: «أهل الأثر»، إلى غير ذلك من الألقاب التي تطلق عليهم المشعرة بأن القوم لم يأتوا بشيء من قبل أنفسهم ولم يخترعوا أمرًا بفكرٍ أو عقلٍ أو رأيٍ أو ذوقٍ أو وجدٍ أو نحو ذلك وإنما هم أتباع وُقفاة للأثر، ولهذا يقال: «أهل السنة» أو «أهل الجماعة» أو «أهل الحديث» أو «أهل الأثر» أو «السلف»، والله ﷻ يقول: ﴿وَالسَّبِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ويقول: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥]، ومرر معنا قول نبينا عليه الصلاة والسلام: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ».

ولعلنا نكتفي بهذا القدر، سائلين الله ﷻ أن يرزقنا أجمعين العلم النافع والعمل الصالح، وأن يوفقنا أجمعين لما يحبه ويرضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال. اللَّهُمَّ إنا نسألك إيمانًا دائمًا وعلماً نافعاً وهدياً قيماً. والله أعلم.

وصلّى الله وسلّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.

